أحمد الرفاعى
(مذكرات)

«سنلاحظ أن هذه المذكرات هى مجموعة من الخاطرات سجلها صاحبها دون ترتيب زمنى، لكنها تتضمن فى مجملها خطوطا بالغة الأهمية لاستكمال الصورة العامة.. كما أنها تتميز بتقديم صورة مجسدة لأسلوب معاملة الشيوعيين فى بعض فترات الاعتقال ومواقفهم إزاءها، وقد أعدت هذه الخواطر بناء على طلب المؤلف».

لا أدرى لماذا تلح على هذه الذكريات، وكلما حاولت أن أطردها تعود إلىّ من جديد، وقد أنساها لمدة طويلة، وأستريح من عنائها، ولكن لا تلبث بعض الأحداث اليومية أن تعيدها إلىّ ثانية. تعيدها فى بعض الأحيان باهتة متقطعة لا رابط بينها، ولكن هذا الشريط لا يلبث أن يترابط من جديد. وكأنه فيلم سينمائى يعرض على دقات نواقيس حزينة رتيبة. تودع موكباً صغيراً فى بحر الظلام، عليه أن يبحر فى ظلمته بين أمواج عاتية قد تبتلعه ولكنه يظل متمكساً بالسطح كعلبة صغيرة تعلو وتنخفض ولكنه رغم ذلك مصر على إكمال رحلته.

ما أكثر ما سمعت مثل هذه الذكريات، يرددها أصحابها فى شرود وبلهجة المريض الذى يحب باستمرار أن يتحدث عن علته، عساه قد يشرك الغير معه فى تخفيف حدتها.. وما أكثر من يطلبون سماع هذه القصص ويستزيدون منها ولكنهم لا يلبثون أن ينصرفوا عنك إما مللاً من كثرة سماعها، وإما اشمئزازا من تفاصيلها.

وما كنت أريد أن أسجل شيئا من هذه الوقائع ببطولتها ومآسيها. رغما عن أنها ليست أحداثا شخصية، فهى ترتبط بالإنسان وكرامته، الإنسان أى إنسان وأيا كان اسمه وتفكيره، مرتبطة بحاضره ومستقبله. وبالذات الإنسان العربى الذى حكم عليه دائما أن يعيش فى خوف محروماً من حقه فى الكلام والتعبير.. ودائما يعيش منسيا فى مجتمعه،

يفكر له غيره. ويصوت له فى الانتخابات غيره، ودائما هو محسوب فى الـ٩٩٪ من الموافقين. «نعم» هى الكلمة المطلوبة، بينما «لا». هى الكلمة المرفوضة. والويل لصاحبها.

لم أكن أتصور أننى سأجلس يوماً من الأيام لأتناول الكتابة، فلم تكن الكتابة مهنتى، ولم أسع لأن أكون كاتبا يعرف كيف يبرز الصور، ويحبك الصياغة، ويجسد الأحداث، ويستبد بالقارئ فيجعله يعيش معه، أو يستبد به القارئ فيحوله إلى راوية له.

ذكريات كثيرة وطويلة بعضها ما زلت أعيشه وأذكره. وبعضها ضاع مع الزمن وسجله آخرون فى كتاباتهم. ولكنها أيا كان الرأى فيها فإنها جزء من كفاح شعبنا الباسل المناضل، الذى لا بد أن تعرفه الأجيال الجديدة.

سجون فى عصر فاروق

وإذا كانت الذكريات كما يقولون تترابط مع بعضها فى عقل الإنسان، وكل ذكرى تثير ذكرى أخرى وتخرجها إلى حيز الوجود، فما زلت أذكر هذه الأيام فى سجن مصر فى ظل الأحكام العرفية فى عام ٤٨ أو ٤٩ ولكنها على كل حال كانت فى ظل حكم إبراهيم عبد الهادى باشا، حيث أعلنت الأحكام العرفية باسم الأمن المطلوب لحماية قواتنا التى تحارب فى فلسطين، والحقيقة أنهم لم يكونوا يريدون بهذه الأحكام العرفية الحفاظ على أمن الوطن كما هو وارد فى المادة ٤١ من دستور ١٩٢٣ التى تتيح للحاكم إعلان حالة الطوارئ إذا كان هناك ما يستدعى ذلك مثل انتشار مرض معد أو فيضان أو حرب، ولكنهم كانوا يريدون بها تصفية الحركة الوطنية التى وصلت إلى أقصى مداها فى عام ١٩٤٦، وتصفية حسابات سابقة مع جماعة الإخوان المسلمين الإرهابية، حينما اغتالت محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء.

لقد جن جنون الطبقة الحاكمة فى ذلك الوقت، وقسموا القاهرة إلى مربعات ويقومون حينما يأتى الليل بتفتيش منازل كل مربع للقبض على العناصر الوطنية أو عناصر الإخوان المسلمين الهاربة.

وكنت فى هذه الفترة هاربا من طلب نيابة المنصورة بالقبض على، حيث قبض على العديد من العناصر فى محافظة الدقهلية من الفلاحين، بحجة أنهم ينتمون إلى منظمة شيوعية (حدتو) وتمكنت من الهرب فى هذه الفترة بعد أن أعطى زميل لى فى الدراسة للأمن كل المعلومات الكافية للقبض علىّ من اسم ووصف للطول والعرض والشكل، واتهامه

لى بأننى المسئول عن تجنيد بعض الخلايا الشيوعية فى قرية طناح والقرى المجاورة لها.

كانت أول مرة فى مصر يقبض على الفلاحين بتهمة الانتماء إلى منظمة شيوعية، بعد أن كان المتهمون عادة من الطلبة أو العمال أو المثقفين، ظهر عنصر جديد هو الفلاح المصرى، والعامل الزراعى.

ولن أنسى كلمة لمأمور سجن الأجانب فى هذه الفترة، حينما فوجئ بالمتهمين فى هذه القضية، ووجدهم كلهم يلبسون الجلباب الأزرق، وبعضهم حفاة، وهو يضرب كفا بكف ويقول بلغة المستجير المتشائم: «والله ما دامت الحكاية وصلت إلى أبو رجلين مشققة، ماعدش فيها فايدة. عليه العوض فى البلد».

المهم أننى هربت من أمر نيابة المنصورة بالقبض على، واستمر هربى لمدة طويلة، حتى قبض على فى القاهرة مع بعض الأصدقاء والرفاق. «أحمد فؤاد بلبع» طالب الهندسة «روبير ستون» الأول على التوجيهية والأول على دفعته فى كلية الهندسة. وآخرون.

كنا فى هذه الفترة فى سجن مصر، حيث يوجد عدد كبير من الرفاق الآخرين. وكانت المعاملة فى منتهى السوء مما دفعنا للإضراب عن الطعام من أجل...

الحق فى قراءة الصحف..

الحق فى وجود نور فى المساء..

الحق فى العلاج الخارجى..

الحق فى الاستمتاع بغذاء خاص..

وربما كانت النقطة الأخيرة مثيرة للضحك، حيث كان معظمنا لا يستطيع أن يستمتع بالغذاء الخاص، وما يقتضيه من تكاليف ومصاريف، ومن المفارقات الغريبة أن البعض من منظمة «م.ش.م»، والذين كانوا يرفعون شعار ١٠٠٪ عمال وكلهم من أبناء الطبقات البرجوازية الكبيرة القادرة والذين ودعوا فيما بعد الكفاح إلى لا رجعة... كانوا يستقبلون غذاءهم اليومى من بيوتهم فى هدوء ودون ضجة.

ما زلت أذكر فى هذه الفترة قيادات الإضراب.

أسعد حليم. شريف حتاتة. كمال عبد الحليم.

مناضلون حقا. ولكن أغلبهم فقراء حقا. من أين يأتيهم الغذاء الخاص، كنا إذا حل المساء نضحك حتى ننسى آلام الجوع.

واستمر الإضراب حوالى خمسة عشر يوما. كان إضرابا قاسيا لم نحقق فيه أى مكسب، إلا مكسباً واحداً حيث أقنعنا الإدارة بتركيب أخشاب للنوافذ لتحول دون برد الشتاء القارس. وانتهى الإضراب بتحقق ذلك المكسب الوحيد.

ومن المصادفات الغريبة أنه بعد انتهاء الإضراب ألغيت الأحكام العرفية التى فرضها إبراهيم عبد الهادى وذلك بعد نجاح حزب الوفد وحصوله على الأغلبية المطلقة وتشكيل النحاس باشا للوزارة الجديدة من الوفديين. وما إن ألغيت الأحكام العرفية، وعاد للقضاء العادى اختصاصه الأصلى، حتى بدأ عرض جميع قضايا المتهمين على القضاء من جديد.

ونتيجة للعلاقات العميقة التى كانت تربطنى بكثير من الوفديين قاموا بإرسال أكثر من محام ليدافعوا عنى، ومنهم الأستاذ «حافظ شيحا» والأستاذ «عدلى المولد».. ونشرت مرافعتهما إلى جانب مرافعتى فى جريدة «صوت الأمة»، لسان حال الوفد المصرى فى هذه الفترة.

كان ذلك موقفا فيه وفاء من الوفديين، حيث كنا نشترك معهم فى جبهة واحدة ضد السراى وضد إبراهيم عبد الهادى رئيس الوزراء. وتقريبا كنت أنا القاسم المشترك كخطيب فى سرادقات الانتخابات الوفدية، حيث كان برنامج الجبهة فى ذلك الوقت يدور حول مطالب بسيطة ومحددة.

إلغاء الأحكام العرفية.

إطلاق سراح المسجونين والمعتقلين.

إقامة حكم ديمقراطى.

وفعلا حصل الوفد على الأغلبية المطلقة، بعد أن تجلت فى هذه الفترة عظمة الشعب المصرى وأصالته، إذ كانت ضمن المعتقلين عناصر يهودية فطالب الشعب المصرى بإطلاق سراحهم، ولا عجب من ذلك فإن هذه العناصر اليهودية كانت معتقلة لأنها ضد الصهيونية، بينما الصهاينة الأصليون كانوا يمرحون فى شوارع القاهرة، نعم كانت هناك عناصر يهودية تناضل ضد العنصرية وضد الصهيونية أمثال: «زكى فورتى» و«هنرى كورييل» و«هليل شوارتز» وآخرون لا أذكر أسماءهم.

والحقيقة أن الشعب المصرى لم يعرف العنصرية يوما من الأيام، ولم يعرف التحيز الدينى.

لقد سقطت الأحكام العرفية، وقدمنا جميعا، نحن المسجونين السياسيين الذين كانوا على ذمة القضايا التى أعدتها المباحث العامة، والقسم المخصوص (كان تابعا مباشرة للسفارة البريطانية) فى خلال سنتين إلى المحكمة، وفى هذه الفترة كان عددنا حوالى المائة أو يزيد، وكانت المباحث تشعر بالحزن والأسى لأن مجهودها فى فترة سنتين قد ينتهى إلى لا شىء ما دامت الأوضاع القانونية أصبحت سليمة، وألغيت حال الطوارئ، فأجهزة التجسس لا تجد نفسها إلا فى ظل الكبت والإرهاب وغياب القانون.

وكان القاضى الذى ينظر هذه المعارضات، شخصية غير مرغوب فيها من جهة المباحث لميوله الديمقراطية والقانونية، وإصراره على أن يأخذ القضاء مجراه، كان اسمه «وجدان طاهر» قاض أمين وعظيم ومؤمن برسالة القانون والقضاء.

وما كادت القضايا تعرض عليه، حتى رفض أى طلب للتأجيل تقدمت به النيابة، وكان وكيل النيابة فى هذه القضايا جميعها اسمه «على نور الدين» عين فيما بعد نائبا عاما، شخص يرتدى نظارة سميكة، ذو كرش يصل إلى ركبتيه، بحيث تشعر أن سترته تصل إلى ركبتيه، أو أنه دون أقدام، دائما مرعوب من قوة خفية، له فى كل يد من يديه ستة أصابع، يتكلم بصوت خفيض فيه معانى الذلة والمهانة، يرتعد أمام أى ضابط من ضباط المباحث حتى ولو كان فى رتبة ملازم.

كان كل همه فى هذه القضايا أن يطلب التأجيل لإطالة مدة حبس المعتقلين، ولكن القاضى كان يرفض باستمرار طلباته.

وما إن عرضت القضية التى كنت متهماً فيها، حتى وقف وكيل النيابة هذا يترافع بصوت مرتعش متهما إياى بالخطورة، وأن المضبوطات التى معى كفيلة بأن تسوقنى إلى المشنقة. ولكن القاضى كان يلاحقه باستمرار.. نريد أن نعرف ما هى المضبوطات.. وبعد كثير من مناورات النيابة، اتضح أن المضبوطات لا تعدو أن تكون رواية مترجمة تدور وقائعها حول سجن الباستيل.

واستجار وكيل النيابة فى هذه الحالة برئيس القسم المخصوص البكباشى «أحمد حلمى» (الذى اتهمته الثورة بعد ذلك أنه على علاقة بالأمريكان) فمال على وكيل النيابة ليوجهه بالاصرار على التأجيل، ولما قمت بتنبيه المحكمة إلى هذا الوضع المشين.. حيث إن ضابط بوليس يوجه النيابة.. استفز القاضى الجليل، وزجر ضابط القسم المخصوص،

وسأله بامتهان عن صناعته وعن اسمه. وأمر بوضعه فى قفص الاتهام.

وهنا تدخل بعض المحامين. وأفرج عنه، ولم ينس قبل مغادرته القاعة أن يسر إلى فى أذنى: «لن أنسى لك هذا الموقف، وسوف أكون فى المستقبل شاهدا ضدك وأنت مساق إلى المشنقة».. وبالطبع لم أذهب إلى المشنقة، بل ذهب هو إلى لا رجعة.

خرجت من السجن، وخرج باقى المسجونين، ولم تنس النيابة أن تضغط عن طريق السراى لإبعاد هذا القاضى عن القاهرة، وفعلا أبعد عن طريق السراى إلى السويس.

ولن أنسى ذلك القاضى العظيم، ورئيس المباحث العامة «حسن المصيلحى» وهو يميل عليه، ليبلغه أنه قد تعب حيث بلغت الساعة الخامسة، وأن عليه أن يؤجل هذه القضايا لصبيحة اليوم التالى، وهو يرفض، بل.. يأمر بالقبض عليه.. لتدخله فى أمور ليست من شأنه. ومحاولته التأثير على القضاء.

خرجت بعد عناء طويل، وبعد مؤامرات من محافظ القاهرة «كامل القاويش» الذى أخر الإفراج عنى لمدة عشرة أيام متنقلا بين سجون أقاليم وجه بحرى (كعب داير)، لعل النيابة تكون لها مواقف ضدى فى هذه الأقاليم..

خرجت بعد هذه الرحلة الطويلة منهكا متعبا، فى أمس الحاجة إلى الراحة بعد أن عرضونى على كل نيابات وجه بحرى.

وبعد الإفراج عنى ببضعة أيام فوجئت بأحد الرفاق يطرق الباب، ويستفسر منى.. هل تعلم أن «صلاح بشرى» قد مات؟ وأن اليوم تشيع جنازته؟ أحسست بالمأساة، صلاح كان زميلى فى مدة السجن.. صلاح بشرى ابن السودان، طالب الهندسة.. المريض بالسل.. الممنوع عنه الدواء حتى يركع.. صلاح المرح الذى يعيش فى مصر كما لو كان فى السودان. كل من رفاقه يناديه «يا زول». يضحك يرقص. يغنى الألحان السودانية فى بساطة ومرح.. صلاح ابن عطبرة.

أصابنى الصمت والذهول. لم أجد جوابا. لم أتكلم.. صمت بارد طويل فى شقة فى أول دور فى المنيرة ١٩ شارع بستان الفاضل.. لم أستطع أن أتكلم. صمت الرفيق أيضا..

وبعد الصمت الطويل، سألته.. وما هو المطلوب؟

وأتى الرد من الرفيق.. لقد أعددنا لمظاهرة ضخمة تطوف شوارع القاهرة لتشهد الشعب على المآسى التى ارتكبتها الرجعية والاستعمار فى فترة الأحكام العرفية، التى

أعلنت باسم تأمين دخول الجيش لتحرير فلسطين.. وفى الواقع استخدمت أبشع استخدام فى تعذيب الوطنيين بل واغتيالهم، لا فرق بين شيوعى ونقابى أو إخوان مسلمين. الكل كان يجلد. يعذب. وبعضهم يعتدى على عرضه. أو حتى يدفن فى الظلام، إنها مأساة غياب الديمقراطية.

وبعد صمت قليل أبلغنى أن الرفاق فى اللجنة المركزية رشحونى لقيادة هذه المظاهرة. وأفهمنى أن كل شىء معد، وأبلغنى بأسماء بعض الرفاق الذين يتولون تنظيم هذه المظاهرة وحمايتها من أى محاولة تخريبية تقوم بها العناصر العميلة لأجهزة المباحث أو السفارات الأجنبية.

من القاهرة إلى الخرطوم

خرجت مع الرفيق للمشاركة فى المظاهرة، وتنفيذ التكليف الموكول إلىّ، حتى وصلنا إلى قرب الجامعة حيث ودعنى الرفيق ومضى فى طريقه. وما كدت أرى المظاهرة وهى تخرج من حرم الجامعة، حتى تبين لى دقة التنظيم رغم ما يسيطر على المشاركين من غضب واشمئزاز لهول الجريمة.

مضت المظاهرة، وهى تجد الروافد التى تمدها بالجماهير، طلبة وعمال من الجيزة، وما إن وصلت المظاهرة إلى ميدان التحرير حتى التقت بعديد من العمال القادمين من شبرا وحلوان والوايلى والعباسية، وتوجهت المظاهرة إلى ميدان الأوبرا حيث صلى على جثمان الشهيد. وكان الغضب قد استبد بالجماهير وهى تهتف بسقوط الاستعمار، وسقوط الرجعية والسراى والمطالبة بمحاكمة الخونة ورجال المباحث.

وما إن خرج الجثمان من المسجد، حتى كنت آخر الخطباء الذين بكوا صلاح بشرى.. لم يكن الموقف يحتمل الرثاء والبكاء أو الكلمات الحماسية، وإنما دخلت مباشرة فى كيفية اغتيال صلاح، والمطالبة بتحديد المسئولية، وإلغاء جميع القوانين المقيدة لحرية المواطن، وأن تبدأ حكومة الوفد بتنفيذ البرنامج الذى سبق وأن أعلنته وهى فى المعارضة.

واستبد الغضب بالجماهير التى أصرت على إرسال مندوب عنها إلى الخرطوم ليقول كلمة الشعب إلى جانب ممثلى الحكومة والسراى الذين سيسافرون إلى السودان. وأصر المشاركون فى المظاهرة على أن أكون أنا مندوبهم فى تشييع جثمان صلاح بشرى إلى السودان.

وما إن أبدى بعض ضباط المباحث الرفض حتى هجمت عليهم الجماهير، وبسرعة وافقوا على أن أصحب جثمانه مع ممثلى الحكومة والسراى.

مضت السيارة بالجثمان إلى المطار وأنا معها وما كادت تصل إلى المطار حتى فوجئت بأن الجماهير قد سبقتنا إلى هناك وهى تردد نفس الهتافات.

واضطرت أجهزة الأمن إلى الإسراع فى اتخاذ خطوات السفر، فأقلعت الطائرة الخاصة بالجثمان والمشيعين، دونما النظر إلى إجراءات السفر العادية، وحتى دون أن يكون معى جواز سفر، وما إن ارتفعت الطائرة فى السماء، حتى بدأت أنظر إلى جثمان صلاح فى صندوقه الخشبى وعليه بعض الزهور وبطاقات النقابات والمدارس والكليات موضوعة على الصندوق.

يا للفظاعة!! لقد كان صلاح معى فى السجن منذ مدة قصيرة. رأيته.. وهو ينزف دما من صدره.. سمعته.. وهو يكح حتى يوشك صدره أن يتمزق. تذكرت.. معاركنا فى السجن من أجل الوصول إلى مجرد تركيب زجاج لمنع البرد فى شهر يناير. اعتصامنا فى السجن من أجل السماح له بكوب من الحليب. وتذكرت.. إدارة السجن وهى ترفض بحجة أن ذلك ليس مدرجا فى اللائحة، وكلمة اللائحة فى السجن تعنى أنها فوق الدستور، ودونها كل القوانين. اللائحة كرباج على ظهر المسجون، مرض لا بد أن ينهى حياته أو يخرجه من السجن عليلا. تلك هى اللائحة التى وضعها «كوكس» أول مدير للسجون المصرية. ومضمون اللائحة أن السجين ممنوع عليه تناول أى مادة بها مواد سكرية ولا حق له فى التدخين.. لا حق فى تناول أى طعام غير طعام السجن المكون من.. نصف رغيف أسود فى الصباح مع بعض حبات الملح.. والغداء فول أو عدس عدد حبات الرمل به أكثر من الفول ورغيف. وفى المساء نصف رغيف وسائل لا لون له ولا طعم يسمونه «اليمك».

كان هذا هو عالم السجن الذى عاشه صلاح بشرى، وانتهى بإصابته بالسل.

ومع مرور الزمن أصبح جميع العاملين فى المصلحة من المدير إلى السجان من عبدة هذه اللائحة. لدرجة أنه بعد الإضراب عن الطعام الذى خضناه فى سجن مصر فى عام ١٩٥٠ وانتهى بأن حصلنا على حقنا فى التدخين وتناول بعض المواد السكرية. أن أحد موظفى السجن حينما رأى واحدا منا يتناول قطعة من العجوة صاح بأعلى صوته (دى خربت) ثم سقط مغشيا عليه.

كان ذلك هو السجن الذى مرض فيه صلاح بشرى، والذى أرافق جثمانه لتشييعه حتى عطبرة.

فى الطريق إلى عطبرة

أقلعت الطائرة من مطار القاهرة وهى لا تضم سوى بضعة أفراد، لا يتعدى عددهم خمسة أو ستة أفراد، مندوبين عن جهات مختلفة، ويترأس الوفد مندوب من السراى، وكان ألباشوات العاملين فى القصر. رجل أحمر الوجه، ذو كرش كبير، وجلد رقيق تكاد الشعيرات الدموية تنفر منه إلى الخارج، يتحرك فى تؤدة وضجر، ولا يفتح فمه بكلمة، وإنما هى مجرد إشارات من يده القابضة على سيجار طويل، ومن حين إلى آخر يحرك رأسه يمينا ويسارا وكأنه على وشك الاختناق من الضيق لهذه الرحلة التى فرضت عليه، ولمرافقته لأناس هم دون المستوى.

كنت أجلس فى الكرسى خلفه مباشرة، وفى مواجهتى الصندوق الذى به صلاح بشرى.

ولا أدرى إلا وأنا أتصور أن الدماء التى تجرى فى عروق هذا الباشا مسروقة من دم صلاح، وأن هذا الباشا على علم بدقائق الأسرار فى سجن مصر حيث انتهت حياة صلاح..

كنت أشعر برعشة فى جسمى من هذه المقارنة.

وما إن مر بعض الوقت حتى أشار إلىّ الباشا، إشارة فيها كبرياء واستعلاء.. ثم سألنى.. هل تجيد الخطابة؟ ولكن الرد كان مفاجأة له، حيث أجبته أننى لا أعرف الخطابة، وثنى على هذا السؤال بسؤال آخر.. هل معك ورقة وقلم؟ فكانت إجابتى أيضا بالنفى.

وهنا نظر إلى الباشا باحتقار واشمئزاز.. وردد أكثر من مرة بينه وبين نفسه ولكن بصوت مسموع.. وليه بعتوك.. ليه بعتوك؟!

ثم أشار إلى حقيبة صغيرة، موضوعة بجواره، وما إن أحضرتها له، حتى أخرج منها ورقة وقلماً، وأملى علىّ خطبة صغيرة، وأشار علىّ بحفظها عن ظهر قلب، لألقيها على الجماهير بمجرد وصولنا إلى أرض المطار، وهى تدور حول أن «الفاروق أعز الله ملكه، وحمى عرشه، يعزى شعبه فى السودان فى وفاة ابنه صلاح».

ولما اطمأن إلى أننى حفظتها عن ظهر قلب، تركنى وشأنى، حيث أخذت أتحدث مع الطيارين وموظف اللاسلكى. وقد اكتشفت فيهم أشخاصا فيهم الكثير من روح المجاملة

والوطنية، والتجاوب مع مشاكل الآخرين. وما إن شرحت لهم قضية صلاح بشرى، حتى أحسست بمدى الاشمئزاز على وجوههم من هذا الإجرام.

وما إن اقتربت الطائرة من مطار عطبرة. حتى نادى علىّ الباشا، وأشار إلى أن أتقدم صف المشيعين، وأن ألقى الكلمة التى أعدها لى، بعد أن أهتف بحياة الملك.

وما إن توقفت الطائرة ورأيت جموع أبناء عطبرة بملابسهم الفضفاضة وعمائهم البيضاء، ووجوههم السمراء، وهم يقتحمون كردون العساكر الإنجليز، ويتقدمون نحو الطائرة، والباشا من خلفى يبتسم مشجعا ودافعا بي إلى مقدمة الطابور لألقى كلمته التى سبق أن أملاها علىّ، وجدتنى أهتف بكل ما أوتيت من قوة.. «يسقط فاروق عدو الشعب».. «يسقط فاروق قاتل صلاح».

ومن فوق سلم الطائرة ألقيت كلمتى عن كيفية اغتيال صلاح، وأن مصر فى ظل الاستعمار وفاروق عبارة عن سجن كبير، وأن هذا الباشا المرافق لجثة صلاح، هو واحد من عصابة تعتمد فى بقائها على السجون، وعلى الآلاف من الجلادين.

وأسقط فى يد الباشا.

ومضت جنازة صلاح بشرى ضخمة، مزدحمة بالآلاف من أبناء السودان، وهى تهتف بكفاح الشعبين فى مصر والسودان. و«يسقط الاستعمار والرجعية». ومضت المظاهرة كبحر لا شطآن له حتى وصلنا إلى المقابر، حيث استبد الحماس بطاقم الطائرة واشتركوا فى المظاهرة، مرددين نفس الهتافات ضد الاستعمار وضد فاروق.

وبالطبع حالت الجماهير بين الباشا ممثل السراى وبين الاشتراك فى المظاهرة.

كنت أعرف معظم قيادة الحزب الشيوعى السودانى، ولكن كانت هذه المرة الأولى التى أرى فيها «الشفيع أحمد الشيخ»، والعملاق «قاسم أمين»، من رواد الحركة النقابية، ومن قيادات الحزب الشيوعى السودانى البارزة.

والتقاليد السودانية فى التعازى، لا تختلف كثيرا عن تقاليدنا فى مصر، حيث يدور الحديث، فى فترة استراحة المقرئ، عن الفقيد وصفاته. وكانت فرصة طيبة لشرح الظروف فى مصر، وسجونها التى اغتيل فيها صلاح بشرى، مع التركيز على تبرئة حزب الوفد الذى تسلم السلطة قريبا، حيث بدأت انفراجة ديمقراطية، من دم صلاح، مؤكدا أن المسئولية هى فترة الحكم العرفى التى أعلنها النقراشى وعبد الهادى وغياب الديمقراطية،

الأمر الذى سمح لبعض رجال البوليس، أن يتحولوا إلى عصابات متخصصة فى التعذيب وهتك الأعراض والعمل بشكل مفضوح لخدمة السراى والسفارتين البريطانية والأمريكية. «الجزار» و«إمام إبراهيم» و«حسن المصلحى» و«أحمد حلمى» و«توفيق السعيد» و«سمير رياض»، وكان يرمز لهم جميعا فى هذه الفترة بالعسكرى الأسود.

وما إن انتهى القراء من قراءتهم بعد منتصف الليل، حتى عدت إلى الفندق الوحيد فى المدنية مع قاسم أمين، فوجدت الباشا جالسا يدخن فى الفراش، وما إن حاول الحديث، حتى كانت نظرة واحدة من العملاق قاسم أمين، ألزمته الصمت، بل ودفعته إلى أن يسحب الغطاء على وجهه ورأسه وينام.

ما أغرب هؤلاء القوم، يبدون شجعانا وفرسانا مع المسجونين المضطهدين، المقيدين، يصولون ويجولون... ولكن عند أول احتكاك مع الجمهور يتحولون إلى جرذان.

وقضيت الليلة مع الباشا فى نفس الحجرة، وما إن أصبح الصباح، حتى وجدت قاسم يوقظنى وهو يبتسم وصحبنى إلى الخارج. حيث كان قد أعد مؤتمرا صحفيا، وبالطبع قلت فيه كل ما فى نفسى ضد فاروق والرجعية المصرية والإنجليز.

ولا أدرى ما الذى دفعنى لأن أفكر فى قضاء بضعة أيام فى السودان استجابة لدعوة الرفاق السودانيين. ولكننى فوجئت بالطيارين وقد فكروا أيضا فى عدم العودة، وخاصة بعد أن اشتركوا فى المظاهرة وهتفوا ضد فاروق. ولكن الشىء الذى كان يقلقهم.. ما هو مصير الطائرة.. وهل سيتركونها.. وبعد نقاش قصير استقر رأينا على العودة وليكن ما يكون.

وما كادت الطائرة فى طريق عودتها تدخل الأجواء المصرية، حتى تحول الباشا الذليل إلى أسد مفترس يهدد ويتوعد، ويطلب من ضابط اللاسلكى أن يتصل بالقاهرة، ليخطر القسم المخصوص بإرسال ضابط إلى المطار، ولكن ضابط اللاسلكى بعد محاولات صورية مع الجهاز أخبره أن الجهاز معطل.

ومن الغريب، أنه عند وصولى للمطار لم يتعرض لى أحد، وبالاتصال بالمنزل عرفت أن البوليس هناك فى الانتظار. لم أذهب إلى المنزل، وبدأت فترة هرب جديدة حتى قبض علىّ بعد رحلة إلى القناطرالخيرية.. ولكن لم يطل الأمر حتى أفرج عنى، حيث كان الوفد فى السلطة بما يحمله معه من تراث فى الحريات والديمقراطية. ما أجمل كلمة سعد زغلول..

«الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة».

إن الديمقراطية هى أروع إنجازات البشر، وإذا كان العمل هو الذى يميز الإنسان عن الحيوان، فإن الديمقراطية هى صانعة الإنسان. فكره. كبرياءه. أمنه. طمأنينته. قدرته على الابتكار، وتركيز قدرة الإنسان على هزيمة الطبيعية وإخضاعها لصالحه.. أما غياب الديمقراطية فيعنى.. استئثار بعض الأفراد بامتيازات يعطونها لأنفسهم، ليستعبدوا الآخرين، وليحولوهم إلى عبيد، لأنفسهم فيفقدون هم أنفسهم صفاتهم الآدمية، بعد أن يكونوا قد قتلوا فى الناس القدرة على الرفض.

«إن الذى لا يملك أن يقول لا.. لا معنى لرأيه حينما يقول نعم».

الاعتقال

وما إن أصدر محمد نجيب قراره بحل الأحزاب السياسية، حتى بدأت حملة اعتقالات واسعة، مستهدفة أساسا الشيوعيين والقوى الديمقراطية، ونجح معظم الرفاق القياديين فى الإفلات من الاعتقال. كانت الوظيفة الأولى الملقاة على عاتقنا كيف نؤمن وجودنا خارج السجن. فى الوقت الذى تنطلق فيه قوى المخابرات والمباحث العامة. لتقوم بالتفتيش فى كل مكان. الجماهير تبدأ نظرة جديدة إلى الثورة فيها تساؤل وفيها استفسار، إذ إنه لم تمر سوى فترة قصيرة على زمن الإرهاب والأحكام العرفية التى أعلنها على ماهر فى أعقاب حريق القاهرة، فقد قضينا الفترة من ٢٦ يناير ١٩٥٢ حتى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى العمل السرى تحت الأرض، ولم نتوقف عن الاتصال بزملائنا فى السجون والمعتقلات. وها نحن نعود من جديد إلى ممارسة نفس حياة الهرب والتخفى.

بدأنا نلتقى من جديد، نجمع شمل فلولنا، ونؤمن بعض الذين لم يجدوا مأوى مستقراً وانتقل بعضنا إلى الارياف. لقد كان معظم أعضاء المكتب السياسى، خارج السجن، وتم أول اجتماع لنا لمناقشة الوقف السياسى.. وكان قرارنا هو الاستمرار فى موقفنا ودعم الثورة فى خطواتها التقدمية ضد الإقطاع والرجعية، وفى نفس الوقت المطالبة بالحرية والديمقراطية لكل القوى المعادية للاستعمار. مع التركيز على مهاجمة التعذيب والاعتقال.

وكان أول منشور أصدرناه يدور حول الطلبة المعتقلين فى الثانوية العسكرية، حيث قتل الطالب عصام سرى الطالب بكلية الطب. كانت تلك فرصة لا بد أن نقتنصها لفضح الإرهاب وقطع الطريق على مسيرة التعذيب التى كانت فى بدايتها.

حضر فى هذه الفترة الرفيق عبد الخالق محجوب، سكرتير الحزب الشيوعى السودانى، وتمت اجتماعات طويلة بيننا انتهت إلى مفهوم موحد، ولكنه أصر فى هذه الفترة على عودة «الجنيد على عمر» السودانى الذى كان عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى، ورغم عدم اقتناع الجنيد بالقرار، فقد نفذه وأقمنا حفلا صغيرا رغم ظروف هربنا، وأخذنا بعض الصور. وكان هذا هو اللقاء الأخير مع جنيد زميل الدراسة والنضال. وما إن وصل السودان، ومضت عليه فترة قصيرة حتى أصيب بحالة عقلية، أعطيت لها تشخيصات كثيرة، كان معظمها يدور حول تعاطيه الكحول، ولكنى أعتقد أنه سافر وهو غير مقتنع بالعودة، فلقد كنت حياته قد استقرت فى مصر، ارتبط بمسيرة نضالها، وأخيرا سمعنا عن وفاته، كان شريفا ومخلصا ومناضلا.

كنت فى هذه الفترة أنتقل من منزل إلى منزل، ولا أشعر بالاستقرار، وأخيرا نجح بعض الرفاق فى أن يوفروا لى مسكنا هادئا تتوافر فيه كل الشروط المناسبة لإنسان لا يريد الأختلاط بالآخرين.

كنت فى هذه الفترة مسئولا عن منطقة القاهرة. وعن الأجهزة الفنية، وكانت المسئولية، تقتضى الكثير من الحركة، التى تتنافى مع وضع إنسان هارب. ولكن حساسية المسئولية فرضت الاستمرار، وكان يشاركنى فى هذا النشاط المرحوم محمد عباس فهمى.

كان شريف حتاتة أحد المسئولين عن النشاط فى الريف، وكان يأتى من حين لآخر لتسلم بعض المطبوعات أو لطبع بعض المنشورات. كان صامتا هادئا كعادته، ولكن الشىء الذى كان يشغل بالى، هو عدم ملاءمة شريف لهذه المسئولية، فهو قادر على العطاء فى أعمال أخرى. طبيب متقدم فى دراسته متفوق دائما أليس جديرا بأن يعمل فى مجاله. أما مجال الريف فقد يصلح له آخرون، قد يكونون أقل كفاءة منه ولكنهم قادرون على التأقلم مع حياة القرية، أما هو فربما كان قادرا على العطاء فى مكان آخر.

كانت الصورة التى ترد عن القرية عن طريق الرفاق الذين يعملون فى الريف أن جماهير الفلاحين وعمال الزراعة سعداء بصدور قانون الإصلاح الزراعى. الذى أحدث فرزا يكاد يكون كاملا فى القرية، فالعلاقات الإقطاعية المغلفة بغلاف الجيرة والقرابة بدأت تتبخر أمام شهية الفلاح ليمتلك قطعة من الأرض. لقد بدأ كثير من الإقطاعيين يتملقون الفلاحين، بل إن بعضهم ممن يمتلك علاقات قوية فى القرية بدأ يملك جزءاً من أراضيه

لبعض الذين يثق فيهم، ليساعدوه على عمليات تهريب الأرض ولكن.. حتى هذه الثقة التى استجار بها الإقطاعى لم تلبث أن تبددت أمام المصالح المادية للفلاح.

لم تكن عملية الفرز على هذا المستوى فقط بل امتدت إلى عزل الإخوان المسلمين حينما أحست الجماهير أن قولهم عن الرحمة والعدل والتضامن قد سقط فى أول جولة مع حكومة الثورة حينما رفض مرشد الإخوان قانون الإصلاح الزراعى. ثم عاد وطالب برفع الحد الأقصى إلى ٥٠٠ فدان.

أما باقى التنظيمات التى كانت تسمى قانون الإصلاح الزراعى- قانون الإفساد الزراعى - فلم يكن لها تأثير.

بدأ الفلاح يشعر أن كلمة سياسة تعنى مصلحة، والمصلحة التى يتطلع إليها الفلاح فى حدود مفاهيمه هى الملكية والحياة القريبة من الإنسانية.

ولكن الرفاق الذين كانوا يعملون فى القرية، ويخالطون العناصر الواعية من الفلاحين، كانوا ينقلون إلينا صورة أخرى. نعم هناك ترحيب ولكن هذا القانون لم يضع فى اعتباره، المزيد من تفتيت الملكية الزراعية، والمزيد من الجسور الفاصلة بين الملكيات القزمية. والتى تستهلك جزءا كبيرا من المساحة بالإضافة إلى الإسراف الذى سيتم فى مياه الرى.

والنقطة الرئيسية أن الفلاحين لم تنشأ لهم التنظيمات الديمقراطية القادرة على استيعابهم وتعينهم على التعامل مع القانون الجديد.. وما يلزم للفلاح من كيماويات وآلات حرث..إلخ.

ولكن كل ذلك لم يكن واردا فى قانون الإصلاح الزراعى. حيث كان الهدف الأساسى منه عدالة التوزيع والقضاء على النفوذ السياسى للإقطاعيين فى القرية. وكانت الصورة التى يقدمها رجال الثورة عن سيطرة الإقطاع على الانتخابات البرلمانية فى القرية صحيحة ومعقولة، حيث كانوا يصورون العمد وهم يشحنون الفلاحين وعمال الزراعة فى عربات الكارو ليدلوا بأصواتهم إلى البك أو الباشا. هذه الصورة حقيقة واقعة فى تاريخ بلادنا، وشاهدتها طفلا فى القرية، حينما كانت الانتخابات فى القرية تعنى المفاضلة بين أسرتين من كبار الإقطاعيين، أسرة نور أو أسرة الشناوى.

ولكن هذه الصورة كانت ينقصها الإطار الذى يوضح هذه المأساة، مسألة شحن الفلاحين وعمال الزراعة ليدلوا بأصواتهم للبك أو الباشا.. هذا الإطار هو غياب الديمقراطية على امتداد عهود طويلة فى تاريخ مصر.

وحينما كان محمد نجيب أو عبد الناصر يقدم هذه الصورة الكاريكاتورية لإدانة الديمقراطية، كانت تقفز إلى ذهنى صور من تاريخ قريتنا. حيث تعلمت أول درس فى الديمقراطية. وعرفت منه أنه لا يوجد ثمن يعادل الديمقراطية.. فقد يتوافر الخبز للإنسان توافره للسجين ولكنه يظل فاقدا حريته فاقدا إنسانيته. قد تتوافر المدرسة للإنسان ولكنه دون الحرية يتحول إلى صفر فى المجتمع، ويتحول إلى كرباج يعد لجلد المجتمع.

وما زلت أذكر أول مظاهرة رأيتها فى طفولتى المبكرة، حيث سار الفلاحون فى مظاهرة كبيرة وهم يهتفون:

يحيا الدستور» ..«يسقط صدقى

لم أكن أعلم من هو صدقى هذا الذى يهتفون بسقوطه وما هو الدستور الذى يهتفون بحياته.

القرية صغيرة. شوارعها ضيقة. مليئة بالحجارة والتراب. والفلاحون يرددون الهتافات ووجوهم غاضبة، وبأيديهم النبابيت، وتستمر مسيرتهم حتى نقطة البوليس وهم يرددون هتافاتهم ويحاصرون مبنى البوليس حيث اجتمع العساكر وحضرة الضابط خلف الأبواب المغلقة، ثم ينصرفون بعد ذلك إلى مكتب التلغراف، حيث يرسلون برقية إلى النحاس باشا، كنت أول مرة أسمع فيها اسمه، وهم يهتفون:

«النحاس خليفة سعد، النحاس خليفة سعد، هل هلالك يا نحاس» ويعود الجميع إلى بيوتهم، وهم يتجمعون حلقات صغيرة، يناقشون.. وأسمع بعضهم وهو يقول:

«إن صدقى باشا حلف يمين بالطلاق لازم كل اتنين يلبسوا جلابية واحدة»!!

فى هذه الفترة عين عمدة جديد للقرية، وهو واحد من أقربائى، كان هو الوحيد الذى يدافع عن صدقى هذا فى القرية، وبمجرد تعيينه استن تقاليد جديدة، لم نكن نعرفها من قبل، هى الضرب بالكرباج وكان يسميه «الأذعر» والويل لمن يبتلى بمقابلته، فالأذعر هذا كان يتناول جسده دون تفرقة بين وجهه وظهره وقدميه.

وأمام منزله وضع جذع شجرة، به حلقات من الحديد يربط بها الفلاحين الذين يخالفون أوامره أو يتأخرون فى دفع ضريبة كانت تسمى «ضريبة العتبة»، وهى لا تتجاوز فى أغلب الأحيان خمسة قروش ولكن الفلاح لم يكن بقادر على دفعها، فيظل يجلد ويجلد حتى يتطوع من يفك أسره بأن يسدد ما عليه.

وكان قريبى هذا أو عمى شخصا قاسى القلب، فظا فى سلوكه، شاذاً فى تصرفاته. كان رجلا طويل القامة ذا عنق طويل مجعد، أصلع الرأس إلى حد أن كان الفلاحون يسمونه (الأذعر) إلا يمل الحديث بصوت عال عن إنجازات حكومة صدقى.

وكانت تأتيه مجموعة نسخ من صحيفة «الشعب» التى كان يصدرها حزب صدقى باشا «حزب الشعب» ولم يكن أحد يقرأها أو يتداولها، وإنما تظل مكومة فى منزله لا يعرف أحد من الشعب شيئا عنها.

ومن جهة أخرى كان هناك جريدة اسمها «الجهاد» تأتى لبعض أفراد فى القرية معظمهم من الحرفيين منهم الحاج مصطفى السقا، والشيخ محمد شمس الدين (المأذون) وغيرهما وكان الناس يتجمعون لقراءتها فى حلقات صغيرة، وما زلت أذكر هذه الصحيفة وقد كتب فى أول صفحة منها:

قف دون رأيك فى الحياة مجاهداً

إن الحياة عقيدة وجهاد

وكثيرا ما كان العمدة، هذا يهاجم التجمعات، ولما عجزت قوة الخفر التابعة له عن ملاحقتهم، قام بتعيين عدد آخر من الخفراء يماثلهم فى العدد، ولم تكن هذه المجموعة تتسلح بالبندقية الطويلة التى يحملها باقى الخفراء، ولكن كان كل منهم يحمل نبوتا، وعرفت فيما بعد أن القرية هى التى تقوم بدفع رواتبهم الشهرية.

ولكن هذه القوة التى أضافها حضرة العمدة الجديد. لم تساعد على استقرار الأمن حيث ازدادت الحلقات التى تقرأ «الجهاد» وحيث زاد عدد جرائم تقليع القطن والحرائق.

وفى ليلة من الليالى هبط على القرية عدد من الجمال، يمتطيها عساكر سود وبأيديهم الكرابيج، ومعهم حضرة العمدة، وهو يعلن: ممنوع الخروج بعد المغرب «يا بلد هلس».

ولكن الفلاحين وجدوا وسيلتهم للخروج، إذ كانوا يشعلون الحرائق فى أى مكان دون قصد محدد إلا الخروج إلى الشارع وتحطيم قرار حظر التجول، حيث كان العمدة، والهجانة أنفسهم، يطوفون بالبيوت ليدفعوا الناس إلى الخارج لإطفاء الحرائق، وتوجت تلك المأساة بأن قبض على أبى ولم أشاهد عملية القبض هذه ولكنى رأيته بعد الإفراج والناس يهنئونه فى المنزل، وعرفت أنه قبض عليه هو وكثير من الأعيان فى القرى المجاورة لإلقائهم بصناديق الانتخابات فى الترعة.

وهكذا كرهت القهر والاستبداد، فكلاهما ليس كلمة تقال فى صحيفة، أو قراراً يصدره حاكم، وإنما موقف ينعكس على المواطنين، ولو كانوا فى أقاصى الريف، فالحاكم المستبد الذى يسلب حرية مواطنيه، يتحول شيئا فشيئا إلى نصف آدمى. فلقد وصل الأمر بعمدتنا هذا وهو الأمى أن كان يفتى فى الدين ويصادر آراء العلماء، بمن فيهم أخوه المدرس فى الأزهر، ويقيم الليالى والندوات السياسية، وبالطبع عثر على بعض أعوان له فى القرية من أصحاب الوشايات والعواطلية والمرتزقة.

تذكرت القرية فى هذه الفترة، وأنا أستمع إلى بعض أعضاء مجلس الثورة وهم يهاجمون الحياة الدستورية والحرية والنحاس باشا، وأحسست بعدم الراحة، وهم يسخرون من الديمقراطية على أساس أنها شحن فى عربات الكارو وهم ذاهبون لإعطاء أصواتهم للباشا أو البيه.. ولكن لم يقدموا صورهم ومسيرتهم وهم يهدمون عدوان صدقى على الحياة الديمقراطية والدستور. ولم يقدموا موقف الفلاح وهو يصوت رغم الكرباج والعمدة لحزب الوفد ليأتى بالأغلبية، حقيقة أغلبية لم تصل إلى ٩٩,٩٪ ولكنها كانت أغلبية حجبت السراى وأحزاب الأقليات وأبعدتهم عن السلطة.. أحسست فى هذا الوقت أن الثورة قد فرضت نفسها وصيا على الشعب، عليها أن تعطيهم فقط ولكن ليس لهم الحق فى أن يطالبوا. عليهم أن يأكلوا وفى نفس الوقت عليهم أن يصمتوا عن أى كلام فيه إساءة لهؤلاء الثوار.

كان هذا هو أول درس تعلمته فى قريتنا عن الحرية، ولذلك توقعت بعد هذه الأحاديث التى يدلى بها رجال الثورة أن يقوموا باعتقال كل من يفكر أن يتحرك حتى ولو كان شريكا لهم بالأمس. أحسست باتجاه الريح فتركت منزلى حيث بدأت الاختفاء... وفى المساء كان الهجوم على منازلنا ولكن من حسن الحظ أنهم لم ينجحوا فى اعتقال أى رفيق من أعضاء المكتب السياسى.